الانتماء الإيديولوجي للمفسر وأثره في توجيه فهم النص القرآني
دراسة نماذج تفسيرية لمدرستي المعتزلة والأشاعرة

The ideological affiliation of the interpreter and its effect on guiding the understanding of the Study explanatory models for the schools of Mu'tazilah and Ash'ari Quranic text

د. محمد مقدم
المركز الجامعي أحمد زبانة - غليزان- (الجزائر)
البريد الالكتروني: mok_med76@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/02/10 تاريخ القبول:2020/03/24 تاريخ النشر: 2020/03/27

الملخص

إنّ التعامل مع مختلف النصوص إنشاء وفهما يخضع لخلفيات يتشبع بها المنتج للنص أو المتلقي له، وقد تتساوي هذه القدرات أو قد تتفاوت بين الطرفين، ويبقى التعامل مع النص بين مقاصد المنتج له ومراميه ومآلاته التي يصبو إليها، وبين ثقافة القارئ والمتلقي ومكانته العلمية في تفكيك رموز ذاك النص، وسبر أغواره والوقوف على غاياته ومقاصده.

من هنا فإنّ القارئ والمتلقي لابد له من آليات ووسائل، وحضور علمي وفكري، بل أحيانا روحي ووجداني، كي يتفاعل مع النص ويقف على أسراره ويدرك غاياته ومقاصده، وقد تعددت هذه الآليات والوسائل وتطورت مع مرور السنوات وظهرت عدة نظريات تتعامل مع النص تُشكل في مجموعها الجهد الإنساني في البحث عن آليات فهم النصوص بأيسر السبل وأسهل الطرق.

ولئن كانت النصوص البشرية أخذت كل هذا الاهتمام في البحث والمعالجة والفهم فالأولى من ذلك كله ما حظي به القرآن الكريم من عناية فائقة منذ نزوله ثم جمعه وتدوينه في محاولات جليلة لفهمه وتيسيره وتفسيره، واستخدم المفسرون في ذاك قدرهم واستفرغوا جهدهم وكانوا مع ذلك يتعاملون مع النص القرآني من خلفية ثقافتهم الدينية وانتماءاتهم الإيديولوجية، وقد ظهر ذلك جليا في تعاملهم مع النص القرآني، بل إن كثيرا من التفاسير تتجلى فيها النزعة الإيديولوجية التي يسعى من خلالها المفسر للتأثير في المتلقي أو القارئ، حتى يقنعه باتجاهه التفسيري، وقد تعددت المدارس الفكرية والإيديولوجية في تاريخ الحضارة الإسلامية ولعل أبرزها وأشهرها المعتزلة و الأشاعرة .

لقد كان للمدرستين حضور قوي في الساحة اللغوية والبلاغية والفكرية، مما أدّى إلى ظهور تفاسير تتشبع بفكر المدرستين، وهو ما سأحاول معالجته في ملتقاكم العلمي المبارك من خلال مداخلة موسومة بـ: " الانتماء الإيديولوجي للمفسر وأثره في توجيه فهم النص القرآني، دراسة نماذج تفسيرية لمدرستي المعتزلة والأشاعرة "

وتندرج هذه المداخلة ضمن المحور الخامس من محاور هذا الملتقى، كما تسعى لتحقيق أحد الأهداف المسطرة لهذه الفعالية العلمية ويتعلق الأمر: بيان دور الخلفيات الإيديولوجية في توجيه كل من المؤلف والقارئ في عملية البناء والتفكيك.

الكلمات المفتاحية: التفسير ، المعتزلة، الأشاعرة، المجاز، التأويل .

Summary

Dealing with different texts is terms of creation and understanding is subject to the backgrounds that the writer and reader are satisfied with . These capabilities may be equal or may vary among the two parties. Dealing with the text remains between the product's intentions, goals, and destinies to which it aspires, and the culture of the reader and the recipient, and his scientific ability to decipher the symbols of that text, and to explore its goals and determine its goals and purposes

Hence, the reader and the recipient must have mechanisms and means, a scientific and intellectual presence, and sometimes even spiritual and sentimental capacities in order to interact with the text and stand on its secrets and realize its goals and purposes. These mechanisms and methods have multiplied and developed over the years. Several

theories dealing with the text have emerged, which together constitute the human effort in searching for mechanisms to understand texts in the easiest way.

While the human texts got all this interest in research, treatment, and understanding. the greatest care has been raised towards the Holy Quran since its inception then compilation and record in an attempts to understand, facilitate and explain it. The interpreters used in their ability and devoted their efforts and were nevertheless dealing with the Quranic text from the background of their religious cultural and ideological affiliations. This was evident in their dealings with the Qur'anic text. Rather, many interpretations reflect the ideological tendency through which the interpreter seeks to influence the reader in order to convince him of his explanatory direction. The most prominent and famous ideology in the history of Islamic civilization had been the Mu'tazili and Ash'ari schools.

The two schools had a strong presence in the linguistic, rhetorical, and intellectual arena, which led to the emergence of interpretations saturated with the two schools 'ideas, which I will try to address in this scientific forum through an intervention marked by:" The ideological affiliation of the interpreter and its effect on guiding the understanding of the Qur'anic text, the study of explanatory models for the Mu'tazila and Ash'ari schools ».

This intervention falls within the fifth axis of this forum, and it seeks to achieve one of the objectives for this scientific activity. The issue relates to: Explaining the role of ideological backgrounds in guiding both the author and the reader in the processes of building and dismantling.

تمهيد:

إن البحث في كتاب الله تعالى بقصد فهم معانيه، والوصول إلى أهدافه ومراميه، هو عمل تنوء تحته الجبال، فهذا الكتاب هو أمانة الله التي أشفقت الأرض والجبال من حملها، وحملها الإنسان.

لقد أقبل العلماء على كتاب ربهم مع تباين اختصاصاتهم، واختلاف اتجاهاتهم، وتنوع ثقافاتهم. فمنهم من برع في تفسيره، ومنهم من تقدم في لغته وفصاحته وبلاغته ونحوه، ومنهم من ارتقى في عقائده وبراهينه، ومنهم من اهتم ببيان أحكامه وحكمه، وكلهم يجمعهم شرف التعامل مع كتاب الله تعالى.

فالمفسرون هم أصحاب الفضل الأول في بيان ما غمض من المفردات وما خفي من المعاني، من أجل فهم النص، فقد حمل العلماء المفسرون على عواتقهم أمانة جليلة وثقيلة، تمثلت في ربط الناس بكتاب ربهم وتيسير معانيه لهم. كما كان من نعمة الله على هذه الأمة أن فتح الله عليهم باب فضله، وعلَّمهم من علمه، فتعددت اتجاهاتهم وتنوعت اهتماماتهم وتوحدت غاياتهم، فمن مُعتنٍ بالجانب الفقهي، وآخر بالجانب العقدي، أو اللغوي والبلاغي...وكلهم من كتاب الله ملتمس.

وبذلك يعتبر الباحثون علم التفسير الرافد الحقيقي لمختلف الدراسات اللغوية والبلاغية ذلك أن " تفسير القرآن أو الدراسات القرآنية عموماً، كانت في الحضارة الإسلامية هي البيئة الطبيعية التي نضجت في أحضانها كل فروع الدراسات اللغوية و البلاغية"[1]، ولذلك كان من طبيعة البحث المنهجي أن نقدم تعريفا موجزا عن التفسير وعلومه.

المبحث الأول : الإطار المفاهيمي

تعريف التفسير.

أ- في اللغة: هناك خلاف بين اللغويين حول الأصل الاشتقاقي لكلمة تفسير، هل هي من(فسر) أم (سفر) ؟. فإذا كان من (الفسر) فالمراد به هو الإيضاح والبيان، ومنه قوله تعالى: (وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) (سورة الفرقان، الآية 33.) أي بيانا وتفصيلا وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في لسان العرب: "الفسر البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرا. وفسره أبانه والتفسير مثله...ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل"[2].

ب- في الاصطلاح: عرفه الزركشي بأنّه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم- وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"[3].

لقد بين العلماء أهم الأدوات التفسيرية التي يجب أن يتسلح بها المفسر الذي يروم شرح معاني القرآن وبيان مراد الله تعالى من كلامه، ويأتي في مقدمة ذلك إلمامه بعلوم العربية فقد ورد عن مجاهد قوله: " لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"[4] .

ذلك أن اللسان العربي نزل به القرآن الكريم وليست هناك لغة أقدر على توضيح المعاني القرآنية وتشريح المفردات وبيان الأحكام من اللغة العربية، أضف إلى ذلك "وجود مجموعة من العوامل الخارجية أهمها استغلاق النص القرآني على أفهام كثيرين...من ذوي الأصول الأعجمية في غالب الأحيان، هذا إلى جانب أخطائهم في نطق القرآن أو اللّحن فيه، وكان من أثر ذلك كله أن تطورت مهمة المفسر قليلا عن ذي قبل فصار عليه أن يتناول النص القرآني من زاوية التركيب كما يتناوله من زاوية شرح الغامض من ألفاظه، وعلاوة على ذلك كان عليه أن يتناول الجانب الإعرابي، وبمعنى آخر كان على هؤلاء المفسرين أن يخوضوا في مباحث بلاغية وأسلوبية أكثر اتساعا مما تعرض له المفسرون السابقون، بحكم هذه المهمة التي كانت تواجههم"[5].

و في سياق ذلك يرى الغزالي أن العلم باللغة لا يعني الإحاطة بدقائقها، بل يكفي في ذلك ما يحصل به فهم الخطاب القرآني " فعلم اللغة والنحو أعني القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعاداتهم في الاستعمال، إلى حد يميز به بين صريح الكلام وظاهره ومجمله، حقيقته ومجازه، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيده، ونصّه وفحواه ولحنه ومفهومه، والتخفيف فيه أنه لا يشترط أن يبلغ درجة الخليل والمبرد، وأن يعرف جميع اللّغة ويتعمق في النحو، بل القدر الذي يتعلق بالكتاب والسنّة ويستولي به على مواقع الخطاب وإدراك حقائق المقاصد"[6] .

ويظهر مما سبق عُلُو شأنِ العربية وعلومها، وكيف أنّ تحليل النص القرآني وتفسيره وتيسير فهمه لدى القارئ والمتلقي لابد أن ينطلق من عتبة الإحاطة باللّغة العربية كي يصل إلى أفق فهم مقاصد القرآن الكريم، وهذه المهمة ليست باليسيرة بالنظر إلى صعوبة وخطورة التعامل مع هذا النص الإعجازي ، ثم بالنظر إلى اختلاف مستويات ومشارب ومدارك القراء والمتلقين لهذه المواد التفسيرية.

إن من قضايا اللّغة العربية التي اتكأ عليها المفسرون على اختلاف مدارسهم التفسيرية، ومرجعياتهم الفكرية والإيديوبوجية، مباحث المجاز ومقولات التأويل التي لا يكاد يخلو منها منجز علمي تفسيري، سواء في مدرسة الأثر أو الرأي، وإنّما التفاوت والتباين حاصل في مواطن التوظيف ومقداره، بين مقل ومكثر، وبين موغل ومعرض، وبين قصد التحليل البلاغي الجمالي، وقصد التخريج والتأصيل الإيديولوجي والعقدي.

ولعل أبرز مدرستين كلاميتين نحت هذا الاتجاه في التفسير وكان لهما حضور قوي في الساحة الفكرية في الحضارة العربية الإسلامية هما المعتزلة[7] الذين بنو أصول مذهبهم على خمسة أصول: - العدل-التوحيد- القول بالمنزلة بين المنزلتين- الوعد والوعيد- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأشاعرة[8].

التوظيف العقائدي لمباحث المجاز في التفسير:

لقد كان **المجاز** الأداة اللغوية الناجعة التي استند إليها المعتزلة في أغلب أعمالهم التأويلية العقلية، ومن ثم ألفيناهم يدركون من وقت مبكر المكانة الخطيرة للدرس اللغوي بعامة والبلاغي بخاصة في خدمة اختيارهم العقائدي"[9].

إن هذا المرتكز الذي اتكأ عليه المعتزلة ينم عن عنايتهم الفائقة بالدليل العقلي وتفضيله وتقديمه حتى على الدليل الشرعي وهو ما يشكل أساس مرجعيتهم الإيديولوجية وفلسفتهم الفكرية وحضورهم اللغوي الذي يتم في ضوئه التعاطي مع النص القرآني.

"وإذا كان المجاز وسيلة خاصة من وسائل الأداء اللغوي، فإن أي فهم لطبيعة المجاز ولوظيفته لا يمكن أن ينفصل عن تصور ما لطبيعة اللّغة ودلالاتها، وهذا التصوّر لطبيعة اللغة إنّما يتم في ضوء تصور أعم لطبيعة النشاط العقلي في سعيه نحو المعرفة، ولقد كان لإعلاء المعتزلة من شأن العقل، هذا الإعلاء الذي ميزهم عن غيرهم من المتكلمين، أثره في تنبههم للترابط بين مبحث المجاز وبين مجالات اللّغة والمعرفة بشكل عام"[10].

ولذلك ليس غريبا أن ينشأ في مقابل ذلك اتجاهات رافضة لهذا الإسراف في تحكيم العقل والمبالغة في التأويل والمجاوزة في توظيف المجاز، ويظهر ذلك من خلال الحملة الضارية التي خاضها ابن تيمية على مجوزي المجاز بسبب " دخول المجاز-قبله وفي عصره- في مباحث العقيدة والتوحيد، وتعلقه بصفات الباري- عز وجل- وأن فريقا من علماء الكلام أوسعوا دائرة التأويل في النصوص المقدسة من غير ضرورة، وادعوا أن لألفاظ القرآن الحكيم ظاهرا وباطنا يخالف كل منهما الآخر وتعسفوا في التأويل...ودخول المجاز في هذا المجال الخطير- مجال العقيدة والتوحيد- بعد أن كان قضية بلاغية نقدية، ولغوية جمالية، هو الذي أسعر نار الثورة على المجاز عند الإمام"[11].

وإن كان للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رأي آخر حيث يقول:" والعجيب أن ابن تيمية بعد كل هذا التشنيع – يقصد إنكاره للمجاز- يتأول الوجه في قوله تعالى:" كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(القصص88) بالجهة ويقول: "إن معنى الآية كل شيء هالك إلا ما أريد به جهة الله" فلماذا أخرج الكلمة من حقيقتها إلى المجاز؟ ولماذا يحرم على علماء الخلف مايراه مباحا له؟ وليته إذ تأول على خلاف مبدئه ومذهبه فسرها بالذات كما فعل جمهور المفسرين بل أصر على أن بتأولها بالجهة والمكان"[12].

ولذلك يرى البعض أنّه عند التحقيق يمكن القول : "إن لابن تيمية مذهبان في المجاز هما:

- مذهب جدلي نظري أنكر فيه المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم، وقد دعاه إلى ذلك فوضى التأويل في عصره وقبل عصره عملا بالأصل المعروف لدى علماء أصول الفقه، وهو سد الذرائع.

- ومذهب علمي سلوكي طبقه على آيات من الذكر الحكيم"[13].

وتأسيسا على ما سبق فإنّ كثيرا من أعلام التفسير ممن ينتمون إلى هاتين المدرستين يعتمدون على مرجعياتهم الفكرية والعقدية في تحليل النّص القرآني وبيانه وشرحه لاسيما فيما تعلق بالمتشابه وآيات الصفات وغيرها، بل إنّهم يلجؤون إلى توظيف مكانتهم اللغوية وطاقاتهم التأويلية وقناعاتهم الفلسفية فشرح تلك الآيات القرآنية، والقصد من ذلك إقناع المتلقي والقارئ بقناعاتهم الإيديولوجية التي تشحن في النصوص وتضخ فيها.

ولذلك نجد **المعتزلة** أولوا "جميع الآيات التي توهم بالتشبيه تأويلا مجازيا عقليا، فوردت الآيات المتشابهات الدالة على التشبيه ظاهريا إلى الآيات المحكمة (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَئْ**)، وهكذا قالوا أنّ الوجه لايكون إلا لجسم، لذا أولوها : أنّ كل شئ هالك إلاّ ذاته أي نفسه، والوجه يعني الذات مشهور في اللغة، فيقال وجه هذا الثوب جيد، أي ذاته جيدة، أما المجئ فلا يتصور إلاّ من الأجسام، لذا أولوها بقولهم بأن الله ذكر نفسه واراد غيره جريا على عادة العرب في حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، فبدلا من أن نقرأ : وجاء أمر ربك فنقرأ (**وجاء ربك**) . أما الإستواء عند المعتزلة، فمعناه الظاهر: هو القيام وهو صفة جسمية، وبما أن الله يجب أن لايكون كذلك، فالإستواء في نظرهم معناه الإستلاء والغلبة كما في قول الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

وبإصرار المعتزلة على التوحيد والتنزيه، أدّى بهم إلى القول بنفي الصفات : كنفي رؤية الله بالأبصار في الدنيا والآخرة ، وإن أجاز بعضهم رؤيته في الآخرة بالقلب أو البصيرة أو بحاسة سادسة"[14].

ولذلك أمكننا القول إنه " ما من عالم إلا وكان أسيرا لبيئته العقدية والاجتماعية واللّغوية والسياسية، ويؤثر كلّ ذلك في فهمه واستنباطه لمعاني ومفاهيم من نص الكتاب أو السنة، وينعكس على تأليفه، فيعالج قضايا عصره بناء على وقائع وأحداث ذلك العصر"[15].

وفي سبيل بيان وتوضيح مدى أثر الانتماء الإيديولوجي والعقائدي للمفسر في تعامله مع النصوص المتشابهة أو آيات الصفات الإلهية يظهر التمايز واضحا والتباين جليا بين الأصول العقائدية للمدرستين ومخرجاتهما التفسيرية في تعاملهما مع كلام الله تعالى (القرآن الكريم) حيث يختلف الأشاعرة مع المعتزلة " في تحديد صفة الكلام الإلهي على أساس أنّ كلام الله صفة لذاته، لم يزل ولا يزال موصوفا به، وأنّه قائم به ومختص بذاته، وهذا الخلاف بين قدم الكلام الإلهي-قول الأشاعرة- وبين حدوثه-قول المعتزلة- كان من شأنه أن يثير خلافا حول أصل المواضعة في اللغة، هل هي توقيف من الله أم اصطلاح من البشر؟ وكان من الطبيعي أن يذهب الأشاعرة إلى اعتبار المواضعة توقيفا، مادام الكلام صفة ذاتية قديمة من صفات الله عز وجل، وإلى العكس من ذلك ذهب المعتزلة اتساقا مع نظرتهم للكلام الإلهي على أنه صفة من صفات الفعل"[16].

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور: " الكلام النفسي صفة قائمة بذات الله تعالى منزه عن الحروف والأصوات والتعلق بالأسماع"[17].

وقد أنكر المعتزلة الكلام القائم بالنفس، وزعموا أن الكلام هو الأصوات المتقطعة، والحروف المنتظمة، ونصوا كلاما قائما بالنفس سوى العبارات الآيلة إلى الحروف والأصوات، ربما يثبت الجبائي كلام النفس، ويسميه الخواطر، ويزعم أن تلك الخواطر يسمعها ويدركها بحس السمع، وذهب الجبائي إلى أن الأصوات المتقطعة على مخارج الحروف ليست كلاما"[18].

وإذا كان تعريف المعتزلة للكلام أنه الأصوات المنظومة المفيدة التي تترتب في الحدوث على وجه مخصوص، فقد كان من الطبيعي أن يعترض الأشاعرة على هذا التعريف لما يؤدي إليه من حدوث الكلام، وبالتالي خلق القرآن ويعد الباقلاني أول من تعرض للرد على هذا التعريف، فذهب إلى أن "الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، فتارة لكون قولا بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما اصطلحوا عليه وجرى به وجعل لغة لهم"[19].

يقول ابن عاشور:" الأشاعرة قالوا تكليم الله عبده هو أي يخلق للعبد إدراكا من جهة السمع يتحصل به العلم بكلام الله دون حروف ولا أصوات....وقالت المعتزلة: يخلق الله حروف وأصوات بلغة الرسول فيسمعها الرسول، فيعلم أنه من عند الله.... والكلام حقيقة حروف وأصوات، وهذه سفسطة في الدليل لأنه لا يقول أحد بأن الحروف والأصوات تتصف بها الذات العلية"[20].

إن هذا الخلاف بين المدرستين في كلام الله تعالى يرجع إلى الخلاف الحاصل حول نظريات نشأة اللغة وامتداداتها العقدية ولذلك حاول أصحاب كل رأي الانتصار لفكرتهم والتدليل عليها والإقناع بها. ولذلك "خالف أهل السنة والأشاعرة المعتزلة في قضية المواضعة الاصطلاحية للغة، وهذا الخلاف يرتد في جذوره في الحقيقة إلى قضية خلق القرآن من جهة، وقضية المعرفة من جهة أخرى، ذهب أبو الحسن الأشعري إلى أن القرآن كلام الله غير مخلوق وذهب إلى تقديم النقل على العقل، يقول فيما يحكيه الباقلاني عنه ويوافقه عليه:" لا مدخل للعقل والقياس في إيجاب معرفته وتسميته وإنما يعلم ذلك بفضله من جهته"[21].

كما أن جوهر الخلاف بين المدرستين ينبني كذلك على رؤية المعتزلة " أسبقية الدليل العقلي على الدليل الشرعي وأن الأول أصل والثاني فرع و"غاية الأمر أن المعتزلة حاولوا الاحتكام إلى العقل وحده واعتبروه أساسا بفهم الشريعة، واعتبروا الشريعة مؤكدة لما في العقول ومتفقة معه".[22]

ولذلك أسس المعتزلة مذهبهم ووضعوا أصولهم الخمسة بناء على حكم العقل، فإنهم أرادوا أن يبرهنوا على استنتاجاتهم وأصولهم، ويجعلوا لها قبولا عند الناس لجأوا إلى الاستدلال بالقرآن الكريم، فاستدلوا من الآيات بما يوافق أصولهم،أما الآيات التي عارضتهم فإنهم أعدوا لها معارفهم العقلية واللغوية الجبارة لكي يؤولوها على غير ظاهرها، أو يحضعوها لقياساتهم"[23]

بينما نجد خلاف ذلك تماما في المدرسة الأشعرية فإنهم " يبدؤون بالأدلة الشرعية من آيات القرآن والأحاديث النبوية، والأخبار والآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، ثم ينتهون بالأدلة العقلية التي تؤكد هذه القضايا. وهذا المسلك يتسق مع إعلاء الأشاعرة من شأن الوحي وتقديمهم إياه على العقل، ويقرر الباقلاني هذا المبدأ بقوله: "إن طرق البيان عن الأدلة لبتي يدرك بها الحق والباطل خمسة أوجه: 1-كتاب الله عز وجل و2-سنة رسول الله-ص- و3 إجماع الأمة و4- ما استخرج من هذه النصوص وبني عليها بطريق القياس والاجتهاد و 5- حجج العقول"[24].

ومن هنا يمكننا القول إن صناعة الفكر عند العالم لن يكون معزولا عن محيطه الاجتماعي والسياسي والإيديولوجي ، وأن تلك المؤثرات التراكمية تبرز في مقولاته الثقافية والفكرية، التي تترجم قناعاته الإيديولوجية " فالفكر لاينشأ من فراغ، أو مستقلا عن الظروف الموضوعية- الاجتماعية والسياسية- التي يكون هذا الفكر نفسه استجابة لها ومحاولة للتصدي لها تغييرا أو تأييدا"[25]. كما أن الأفكار الواردة على الثقافة والحضارة من الصعب أن تمارس تأثيرها الفعال والمثمر في حضارة مالم تكن الظروف الموضوعية- الاجتماعية والسياسية- مهيأة لتلقي هذه البذور واحتضانها، وتهيئة المناخ الملائم لها لكي تنمو وتزدهر وتؤتي أكلها"[26].

المبحث الثالث : الانتماء الإيديولوجي وتحليل النص القرآني

إن المطالع لتفاسير مدرستي المعتزلة والأشاعرة يقف على الصراع الإيديولوجي و السجال العقدي و الخصومة الفكرية التي كان مسرحها المنجز العلمي للمدرستين، ولعل أكبر مجال معرفي غذي فيه هذا الصراع الطائفي هو كتب التفسير التي تحتفظ بمقولات المدرستين وعديد الأدلة والشواهد التي كانت تساق في الانتصار لمذاهبهما، ويمكننا أن نشير إلى نماذج من هذا السجال العلمي العقدي الذي يستحضر فيه أعلام ومفسرو المدرستين انماءاتهم العقدية ويحللون في ضوئها النصوص القرآنية المتشابهة، أو آيات الصفات ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: "**يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** " يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما"[27].

قال الإمام القرطبي:" يل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البَيعة. وقال ابن كَيْسان: قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم."[28]

وهنا نلاحظ اللجوء إلى التأويل وذلك بتفسير اليد بالنعمة والقوة والنصرة خلافا لمذهب التفويض وهذا اعتمادا على المرجعية العقدية التي تعتمد على التنزيه.

وفي تفسير قوله تعالى: "**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** قال الزمخشري : تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله : (**إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ**) (القيامة:12)، (**إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ**) (**إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلاْمُورُ**) (الشورى، 53) (**وَإِلَىٰ ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ**) (آل عمران، 28)، (**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) (البقرة،245) ، (**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) (هود،88)، كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإنّ المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه: محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ ملك وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا"[29].

في هذا النص التفسيري يلجأ الزمخشري إلى استعراض شواهد قرآنية معتمدا على قواعد اللغة في تأويل الآية القرآنية حتى يتماشى تفسيرها وفق مذهبه الاعتزالي الذي ينفي رؤية الله عز وجل ويؤولها إلى التوقع والرجاء.

وعلى النقيض من ذلك تتبنى المدرسة الأشعرية رأيا مخالفا بثبوت رؤية الله تعالى يوم القيامة وفي سياق ذلك يقول الإمام القرطبي في الجامع :" الأوّل من النّضْرة التي هي الحسن والنَّعمة. والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال: نَضَرهم اللَّهُ يَنضرُهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغنى، ومنه الحديث : نَضّر الله آمرأً سمع مقالتي فوعاها. (**إِلَى رَبِّهَا**) إلى خالقها ومالكها (**نَاظِرَةٌ**) أي تنظر إلى ربها، على هذا جمهور العلماء.... وروى يزيد النحوي عن عِكْرمة قال: تنظر إلى ربها نظراً. وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم"[30].

يقول ابن بطال في سياق الرد على نفي المعتزلة للرؤية معتمدين على التخريج النحوي "إن تأويلهم لناظرة بمنتظرة خطأ لأنه لا يتعدى بإلى"[31].

وفي تفسير قوله تعالى: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (يونس، 26)**. قال الزمخشري: " ٱلْحُسْنَىٰ: المثوبة الحسنى (**وَزِيَادَةٌ**) وما يزيد على المثوبة وهي التفضل. ويدلّ عليه قوله تعالى : (**وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ**) (النساء: 173) وعن عليّ رضي الله عنه : الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة. وعن ابن عباس رضي الله عنه : الحسنى: الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها. وعن الحسن رضي الله عنه :عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه : الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلاّ أمطرتهم .وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى"[32]. وهنا ينفي الزمخشري هذه الرؤية ويصف غيره بالمشبهة في إثباتهم لها. وهذا ما يندرج حتما في إطار التأثير على القارئ المتلقي ومحاولة إقناعه بهذا الرأي.

ولذلك فإن تفسير النص القرآني لم يسلم من الجدال العقدي و التجاذبات المذهبية التي تتعلق في مجملها بجانبين أساسيين هما :

- المفسر وحمولاته المعرفية وخلفياته الإيديولوجية وقناعاته المذهبية التي يسعى إلى عدم الخروج عليها و تضمينها في النصوص التفسيرية التي يقدمها.
- النص المفسر وما يتضمنه من قراءات وتأويلات تفوق الطاقة البشرية وتجعل منه نصا مفتوحا على الكثير من التفاسير والتأويلات-في ضوء ضوابط المقاصد وأصول اللغة وثوابت الشرع- مما ينجم عنه العديد من الآراء والاجتهادات.

ولذلك "لم يكن المفسر القديم بعيدا عن الجدل والصراع الكلامي، ومن ثم لم يكن استخدامه لوسائله التحليلية للنص القرآني بعيدا عن هذا الجدل"[33].

إن الخلفية الإيديولوجية والثقافية للمفسر والتي ينطلق منها و يتغيا من خلاله بسط هيمنته المعرفية على المتلقي لم تكن حكرا على هتين المدرسين وإنما كان التركيز عليهما للشهرة الواسعة لهما بما تشكلانه من ثنائية قوية للمنجز التفسيري منذ نشأة الفرق ، لكن يبقى هذا التأثر بالمرجعية الإيديولوجية مظهرا سائدا لدى العديد من الفرق الإسلامية .

فبالإضافة إلى وجود ثقافة خاصة بكل فرقة أو مذهب عرفها تاريخ التفسير القرآني، فبيئة الرواية اعتمدت على نقل الأقوال والأحاديث، ولم تخل من إعمال العقل ومحاولات الاستنباط والترجيح اعتمادا على العقل القائم على النقل.

وفي بيئة الاعتزال نجد الثقافة العقلية والجدل الكلامي اعتمادا على الأصول الخمسة: التوحيد، العدل،الوعد والوعيد،المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم يخضعون الآية وما يتفق مع تلك الأصول ومن هنا كان العقل يتحكم في فهم النص القرآني ويؤيد المذهب.

وفي بيئة الشيعة تجد تمسكهم بمذهبهم ودفاعهم عنه حتى ولو اضطروا إلى التأويل والاعتماد على الأحاديث الموضوعة، وقالوا بالإمامة وعصمة الأنبياء والرجعة والتقية والمهدي.

وفي بيئة التصوف نجد القول بالمذهب الإشاري أو الفيضي، ومن أجل تطبيق هذا لجأ المتصوفة إلى الخروج باللغة عن الدلالات المقصودة والخروج بالنص عن المعنى الظاهر واعتمدوا على الزهد والفناء وطاعة الله ومجاهدة النفس.

وفي بيئة الفلاسفة نجد الكندي يعتمد على المقاييس العقلية ويتعرض للمعنى اللغوي باعتباره عاملا أساسا يسانده"[34].

لقد نبه العلماء إلى العديد من الأسباب الكامنة وراء اختلاف المفسرين والتي في جملتها تتعلق بأدوات التفسير أحيانا ، وبثقافة المفسر وواقعه وبيئته ومحيطه وثقافته أحيانا أخرى فمنها " ما هو متعلق بعقلية المفسر والفروق الذاتية بين المفسرين في امتلاك وتفعيل أدوات فهم النص القرآني بهذا الواقع المعاش، واستنطاق الآيات على ضوء المشكلات الواقعية التي يحياها في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة، أو في سبيل إدماج النص القرآني وتحديد موقفه من هذا الواقع "[35]، وقد يكون بناء على جملة الآليات والوسائل التي يتزود بها المفسر ومن ذلك "اختلافهم في تأويل الكتاب والسنة بحسب ما فهموه من اختلاف اللغات والقرائن والأحوال"[36].

وبالنظر إلى مجموع تلك الأسباب التي تولد عنها تباين في تفسير النصوص القرآنية من خلفية المعتقدات المذهبية والعقدية عند مدرستي المعتزلة والاشاعرة بمكن القول إن هذا السجال العلمي نجم عنه ثراء معرفي ينم عن العقلية الفذة والشخصية العلمية الموسوعية التي عرف بها علماؤنا، هذا الثراء يظهر

جليا في العديد من المدونات التفسيرية التي كان يتنافس أصحابها في فرض آرائهم والترويج لأفكارهم، والتأثير على قناعات قرائهم، ونحن اليوم نقف إزاء هذا التراث الزاخر بالحمولات المعرفية الجليلة، والخلافات الفكرية والمذهبية العميقة، موقف مساءلة عن مقصديات وغايات هذا التنافس الفكري بين المدرستين، مما أجمله بعض الباحثين بقوله: إن الفرق بين الفكر الإعتزالي والفكر الأشعري ، يمكن رصده على ثلاث مستويات أولها : خلاف حول الأسبقية المنهجية والأولوية الإبيستيمولوجية بين العقل والنقل ،ثانيا الصراع العقدي , وفوق هذا وذاك العامل الأيديولوجي الذي يتصدر موقع التأطير والفاعلية لذلك الخلاف , ويعمل على توسيع دائرته"[37].

خاتمة :

من خلال ما سبق بيانه يمكننا أن نسجل النتائج الآتية:

- صناعة الفكر الإنساني تقوم على تراكمات معرفية مبنية على خلفيات وروافد عقدية وفكرية وفلسفية.
- توظيف القناعات الفكرية والعقدية والمذهبية في تفسير النصوص القرآنية.
- ممارسة المنتج للفكر والمعرفة سلطته في التأثير على المتلقي انطلاقا من قناعاته وأفكاره .
- التباين اللغوي والفكري والمذهبي يمنع من فاعلية التأثير من صانع الفكر ومنجز المعرفة على القارئ أو المتلقي.
- تأثر المدونات التفسيرية بالقناعات المذهبية والفكرية لأصحابها .
- ظهور الانتماءات الإيديولوجية وأثرها على عملية التفسير بين مقل ومكثر ومغال ومعتدل.
- الثراء العلمي والمعرفي في المدونات التفسيرية المبنية على السجال المذهبي والعقدي.
- المتلقي والقارئ يتأثر بالهيمنة المعرفية الممارسة عليه من منتج المعرفة خصوصا في غياب وسائل وآليات معرفية-لدى القارئ-للتنبه لها.
- كل منجز معرفي مبني على خلفيات ثقافية ومذهبية لصاحبه قد يصرح بها وقد تستفاد تلميحا لا تصريحا.

قائمة المصادر والمراجع

- الاتجاه العقلي في التفسير، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي،ط4، 1998م،
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي،
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة، الجويني، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ط1، 1430ه، 2009م .

- أثر الواقع في التفسير، عماد يعقوب حمتو، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، العدد 8، ج1 ص 214.
- الإكسير في علم التفسير، الطوفي، المطبعة النموذجية، مصر.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.
- البيئة وأثرها على المفسرين دراسة تطبيقية على الإمام القرطبي ،د صلاح الدين عوض محمد.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس،1984.
- تفسير الكشاف، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، مكتبة العبيكان، الرياض،ط1، 1418هـ،1998
- تفسير الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد القرطبي، مؤسسة الرسالة،ط1، 1427هـ/2006م.
- ثقافة المفسر عند الزركشي من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن، ليلى محمد مسعود علد المنعم،رسالة ماجستير في الآداب، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.
- الفرق بين الفكر الاعتزالي والفكر الأشعري، أشريف أحمد ولد محمدو أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي، الموقع الالكتروني: www.kiffainfo.net
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، .
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، ط1، دت،
- المستصفى، الإمام أبو حامد الغزالي.
- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ، محمد بن عبد الرحمن مغراوي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/ 2000م.
- المجاز في القرآن الكريم بين المعتزلة والأشاعرة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية، د: مذبوحي محمد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية 2005/2004م.
- المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار، عبد العظيم إلراهيم، مكتبة وهبة، ط1، 1416هـ،1995م.
- من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله تعالى ، محمد سعيد رمضان البوطي،دار الفارابي للمعارف،الطلعة الأخيرة 1427هـ / 2007م،
- المعتزلة والتوظيف اللغوي لمسائلهم العقدية، دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم،أحمد خزعل، رسالة ماجستير، قسم العقيدة، كلية أصول الدين، جامعة العراق، السنة الجامعية 1432هـ/ 2011م.

الهوامش:

1- الاتجاه العقلي في التفسير، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي،ط4، 1998م، ص99.

[2]- لسان العرب لابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، ط1، دت، ج 11 ص180.

[3]- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ/1988م. ج1 ص 33.

4- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج2 ص 477 .

5- الاتجاه العقلي في التفسير، مرجع سابق، ص99

6- المستصفى للغزالي، ج2 ص352 .

[7]- الغلاة في نفي الصفات الإلهية القائلون بالعدل والتوحيد وأن المعارف كلها عقلية حصولا ووجوبا قبل الشرع وبعده وأكثرهم على أن الإمامة بالاختيار وهم عشرون فرقة" ينظر: المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ، محمد بن عبد الرحمن مغراوي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/ 2000م، ص 283.

[8]- نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، وأبو الحسن قد تراجع عن عقيدة المعتزلة ورجع إلى عقيدة أهل السنة والجماعة" ينظر: المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ص 305.

[9]- المجاز في القرآن الكريم بين المعتزلة والأشاعرة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية، د: مذبوحي محمد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية 2005/2004م ص 7.

- الاتجاه العقلي في التفسير، حامد أبو زيد، ص6.[10]

[11]- المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار، عبد العظيم إلراهيم، مكتبة وهبة، ط1، 1416هـ،1995م، ص7.

[12]- من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله تعالى ، محمد سعيد رمضان البوطي،دار الفارابي للمعارف،الطلعة الأخيرة 1427هـ / 2007م، ص 122.

[13]- المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار، ، ص22.

[14]- الفرق بين الفكر الاعتزالي والفكر الأشعري، أشريف أحمد ولد محمدو أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي، الموقع الالكتروني: www.kiffainfo.net

15- البيئة وأثرها على المفسرين دراسة تطبيقية على الإمام القرطبي ،د صلاح الدين عوض محمد، ص 2.

16- الاتجاه العقلي في التفسير ،ص71.

17- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس،1984،ج16، ص 196.

[18]- الإرشاد إلى قواطع الأدلة، الجويني، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ط1، 1430هـ، 2009م ص 96،97.

19- الاتجاه العقلي في التفسير، ص79.

20- التحرير والتنوير، ابن عاشور، 1984، ج8 ، ص21

21- الاتجاه العقلي في التفسير، ص 75.

22- الاتجاه العقلي في التفسير، ص 60.

[23]- المعتزلة والتوظيف اللغوي لمسائلهم العقدية، دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم،أحمد خزعل، رسالة ماجستير، قسم العقيدة، كلية أصول الدين، جامعة العراق، السنة الجامعية1432هـ/ 2011م ص 48.

24- الاتجاه العقلي في التفسير ،ص 57.

- الاتجاه العقلي في التفسير، ص 11.[25]

26- الاتجاه العقلي في التفسير، ص11.

27- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، مكتبة العبيكان، الرياض،ط1، 1418هـ،1998، ج5 ص 537.

[28]-الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد القرطبي، مؤسسة الرسالة،ط1، 1427هـ/2006م، ج19، ص 306.

29- تفسير الزمخشري ، ج6 ص 270.

30- تفسير القرطبي ، سورة القيامة، الآية ج21 ص428/427، قال ابن كثير:" (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه" :إنكم سترون ربكم عياناً . "وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة، وهما في

الصحيحين: أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال" :هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ "قالوا: لا، قال" :فإنكم ترون ربكم كذلك. " ينظر تفسير ابن كثير لسورة القيامة الآية 22 و 23.

31 فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج 17 ص195.

32- تفسير الزمخشري، الآية ج3، ص 130 و131.

33- الاتجاه العقلي في التفسير، ص96.

34- ثقافة المفسر عند الزركشي من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن، ليلى محمد مسعود عبد المنعم، رسالة ماجستير في الآداب، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص21.

35- أثر الواقع في التفسير، عماد يعقوب حمتو، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، العدد 8، ج1 ص 214.

36- الإكسير في علم التفسير، الطوفي، المطبعة النموذجية، مصر، 1977م، ص 7.

37- الفرق بين الفكر الاعتزالي والفكر الأشعري، أشريف أحمد ولد محمدو أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي، الموقع الالكتروني: www.kiffainfo.net